الفصل السادس

تركى بن سعود

obeikandi.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

تركي بن سعود

إن انهيار الدولة السعودية الأولى التي كانت ترتكز على وازع ديني وخلقي أكسبها احترام الناس، وأسفر وبشكل طبيعي لكن بتسارع مفاجئ عن تراخ في قواعد السلوك الديني التي كان لها الفضل الكبير في انتشال العرب من الحالة الهمجية التي سيطرت عليهم قبل ظهور دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب.

عاودت مظاهر التشيع الديني والتشاحن والتنافس بين القبائل تجتاح كافة مناطق الجزيرة العربية. كانت تلك المظاهر تتم إما بتستر علني أو غير علني من قبل زعمائها الجدد الذين لم يكونوا بأي شكل من الأشكال مهتمين بتحسين أحوال معيشة الأهالي أو إعادة بناء الاقتصاد الذي دمرته الحرب، بل على العكس من ذلك كان جل هم وغاية «إبراهيم باشا» المباشرة دب الرعب في قلوب الأهالي وابتزازهم بالقوة من كل الممتلكات التي تساهم بتموين قواته في مواقعها المنتشرة في كل مكان. وفي الوقت نفسه تعمدت قواته أن تدمر كل الوسائل والإمكانات المحلية التي يمكن أن تستخدم ضد حكم الأتراك المستبد. لم تعد الناس تسمع لصوت العقل ناهيك عن عدم سماعها لصوت الدين، وأصبح التنقل بين قرية وأخرى أمر خطير جداً. كما لم يعد بإمكان الوجهاء في المدن التنقل دون حراسة ترافقهم، وأصبحت النميمة والاتهامات الكاذبة الخبز اليومي للناس. ومن خلال تعامل المصريين مع ضحاياهم المشدوهين لم يجد الأتراك أية صعوبة في الاستيلاء على ممتلكاتهم وغلال محاصيلهم وتسخيرها لخدمة الجيش. هذا ودمروا كل الأسوار والأبنية التي من المحتمل تساعد في مقاومة الابتزاز

والأعمال الوحشية الأخرى التي كانوا يقترفونها.

ونظراً لهذا الجور المفروض على مصادر الأرزاق المحلية، وللتدمير الذي طال واحات النخيل وجني المحاصيل أثناء الحرب وبعدها، فقد خيمت المجاعة على الجزيرة العربية. يمكن أن يكون من الصعب تصديق القصة التي تقول إن القوات المصرية بدأت تأكل العشب من شدة الجوع، لكن ما هو أكثر احتمالاً للتصديق أن ضحايا الجنود المصريون أنفسهم كانوا يأكلون العشب. ولم تشر أية وثيقة تاريخية إلى وجود أمر إداري يهدف لتحسين حصة الأهالي أو زيادة إنتاج المناطق المحلية، ناهيك عن انعدام أي قرار يهدف إلى تحسين الأوضاع الأمنية للأهالي في هذه المناطق، وذلك بدءًا من سقوط الدرعية حتى رحيل الحاميات المصرية عن مناطق الجزيرة العربية. إنه من المحتمل جداً أن يكون ذلك الإهمال بالواجب وأن تكون تلك اللامبالاة بأمور الناس جزءًا متعمداً من سياسة «محمد علي» الذي كان مهيئاً نفسياً لترك الصحراء العربية تعاني من فوضى مستوطنة فيها. لم يكن ليكترث بها طالما أنها لن تتعدى وبشكل جدي على الأقاليم المتاخمة للبحر الأحمر والتي كانت بالغة الأهمية بالنسبة لمصالح الإمبراطورية العثمانية. هذا ولم يكن بإمكان «محمد علي باشا» أو أي شخص آخر أن يتصور بأن الدولة السعودية ستبرز من جديد (وفي أقل من عقد من الزمن) متحدية الفوضى التي تركها ابنه فيها.

الحقيقة أن «إبراهيم باشا» راودته فكرة الوصول بالحكم التركي (العثماني) إلى الخليج وبعد سقوط الدرعية مباشرة قام الأخوان «ماجد» و «محمد» (من أسرة ابن عريعر الرئيسية في قبيلة بني خالد، واللذان كان حاكماً على منطقة الأحساء) بمحاولة نجحا فيها جزئياً لاستعادة سطوتهم

وحكمهم. فاعترفت «الهفوف» و«القطيف» بحكمهم، إلا أن استقلالهما لم يدم لفترة طويلة ذلك لأن «إبراهيم باشا» أرسل قوة صغيرة تحت إمرة «محمد كاشف» لجمع كل الأموال والممتلكات الخاصة بأسرة «آل سعود» ومؤيديهم، الأمر الذي حمل أسرة «عريعر» التي كانت تدعي وتطالب بالحكم على الهرب، وهرب معهم زعيم قبيلة «سبيع». بعدها سيطر الأتراك على الأحساء وبقوا فيها إلى حين قرر «إبراهيم باشا» الجلاء عن الصحراء العربية.

اقترف الأتراك في تلك الفظائع بحق كل من كان له علاقة بـ «آل سعود» والدعوة السلفية. وكان قرار الجلاء عن الصحراء العربية (الذي يقال بأن محمد علي باشا نفسه اتخذه) ذا أهمية بالغة لبريطانيا العظمى التي كانت قواتها مشغولة خلال العقدين الماضيين في إيجاد سلسلة مترابطة من الممتلكات الخاضعة للإمبراطورية البريطانية. وبعد مضي قرن ونصف توسعت القوات البريطانية في أنشطتها ووصلت المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية، وليس هناك علاقة تذكر بين تفاصيل أحداث النشاطات البريطانية في منطقة شبه الجزيرة العربية وتاريخ الأحداث المحلية للصحراء العربية، لكنه من الصعب التصديق أنه كان الهدف من نزول قوات بريطانية كبيرة في «القطيف» (والتي جاءت إما قبل أو بعد احتلال قوات «محمد كاشف») مجرد إعراب عن التعاون بين البريطانيين والأتراك. والجدير بالذكر هنا أن احتلال قوات «محمد كاشف» لتلك المنطقة جاء على لسان بعض السكان، لكن لم يؤكد أي مصدر رسمي حدوث ذلك الاحتلال.

كان تمركز الأتراك على شاطئ «الأحساء» بمثابة تحد غير مباشر للموقع

البريطاني في منطقة الخليج الموقع الاستراتيجي المهم للعثمانيين. ومن ناحية أخرى كان من المهم بالنسبة للبريطانيين أن يتحققوا من نوايا «إبراهيم باشا» ونوايا والده بخصوص المناطق الواقعة على شواطئ الخليج. والواضح أن الرحلة التاريخية التي قام بها الكابتن «سادلير» عبر الصحراء العربية في صيف عام ١٨١٩ كانت قد أعدت أصلاً لتخدم ذلك الغرض، وعليه فلا يوجد تفسير لسبب فقدان القوات البريطانية لفرصة احتلال كافة مناطق ذلك الساحل الخليجي وصولاً إلى الكويت (التي لم تكن على أهمية كبيرة من ذلك الوقت). وإذا كانت القوات البريطانية فعلاً موجودة في منطقة «القطيف» فليس أمامنا إلا أن نعتبر أن ضياع تلك الفرصة كان مجرد غموض يصعب تفسيره، كما يمكن من وجهة النظر البريطانية أن ننظر إلى عودة «ماجد بن عريعر» وأخيه إلى الأحساء على أنها مجرد اتفاق مُرضٍ يرتكز على تطورات محتملة للوضع هناك، لكن في الواقع لم يتبلور ذلك الاتفاق.

وبعد وصول أوامر «محمد علي باشا» القاضية بتدمير الدرعية وإجلاء كافة القوات التركية وإنزال الدمار في الأسوار والتحصينات والقرى والمدن، بدأ «إبراهيم باشا» بتجميع القوات التركية المتناثرة وسار بها نحو «ضرما» ومن هناك اتجه نحو عاصمة الدرعية وتوقف فيها للاستراحة لمدة تسعة أشهر. قام «إبراهيم باشا» خلال الأشهر التي قضاها في «ضرما» بشن عدة غارات على «سبيع» و «عجمان» و «عنزة»، وكانت تلك الغارات أكثر من مجرد حملات غزو لجمع ونهب المؤن. حدث أن نجا «إبراهيم باشا» بصعوبة من محاولة لطعنه بخنجر، إذ نفذ الخنجر من بنطاله وغرز في سرج

الحصان وأصيب الحصان بجرح بليغ.

تابع «إبراهيم باشا» المسير بقواته إلى «القصيم» في طريقه إلى المدينة ووصل مع مرور الوقت إلى هناك ومعه «حجيلان» حاكم الإقليم الذي وافته المنية في المدينة عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وفي تلك الأثناء يبدو أن أغاوات الباشا «إبراهيم» ارتكبوا أعمالاً وحشية استهدفت القضاء على الشخصيات البارزة التي يمكن أن تعمل على بناء ذلك البلد المدمر. وقبل النزوح عن مواقعهم للانضمام إلى قوات «إبراهيم باشا» قام هؤلاء «الأغاوات» باعتقال أمير حائل «محمد بن عبد المحسن بن علي» وأخيه «علي»، كما اعتقلوا أمير عنيزة «عبد الله بن راشد» وقتلوهم بوحشية بالغة. عانت أسرة «العفيصان» في «الدلم» على أيدي الآغا «حسين جوخدار» من الويلات ما هو أسوأ من الفظائع التي تعرض لها الأمراء أعلاه. قام «حسين جوخدار» - الذي قطع رحلته إلى الحوطة وعاد إلى الدلم - بذبح ثلاثة من قادتها وصادر كافة ممتلكاتهم. وفي جوار الدرعية أيضاً قام الأتراك بقتل العالم الديني «علي بن عبد الله» أحد أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». ولم تكن المكائد وأعمال الإجرام والاقتتال المميت بين القبائل (والتي برزت جميعها إثر رحيل قوات «إبراهيم باشا» عن مناطق في القصيم مثل «بريدة» و «حريملاء» وأماكن أخرى)، سوى جزر من الرعب في خضم كبير من الأحداث التي سرعان ما بدأت تظهر وسط حالة فوضى عارمة.

سبق أن أشرنا إلى عودة الأخوين «عريعر» إلى مركزهم التقليدي في الأحساء التي استقر الوضع فيها بعد قيامها بقتل زعيم قبيلة «السياسب». لم يكن من المعقول أن يكتفوا باستعادة سطوة أسرتهم، خاصة أن كرسي

العرش في الدرعية قد أصبح شاغراً ومدعاة للتنافس. كان المنافس لهم الأكثر خطورة عليهم عائلة أمراء «العيينة» الذين تكشفت طموحاتها منذ أن انضموا إلى السيادة السعودية. كان «محمد بن مشاري بن معمر» زعيم العائلة موجوداً في الدرعية طيلة فترة الحصار، ولم يغادرها إلى «العيينة» إلا بعد أن دمرها «إبراهيم باشا».

وفي شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٨١٩ سار «ابن معمر» بقواته إلى الدرعية ونصب نفسه إماماً فيها وحاكماً على كافة مناطق نجد بدلاً من أمراء «آل سعود». كما بدأ في حشد الدعم والتأييد لمطلبه ومكانته الجديدة. لم يحظ «ابن معمر» سوى بتأييد متواضع من مناطق محددة اتخذت موقفاً ودياً منه. وفعلاً بادر «ابن معمر» في إصلاح أنقاض المدينة، لكن جهوده الرامية إلى استعادة الرفاهية في المناطق التابعة لسلطته اصطدمت وتعثرت بجفاف موسم الشتاء وكذلك بالمجاعة التي نجمت عنه، ذلك إذا قورنت بالأمطار غير الاعتيادية والفيضانات التي شهدها العام المنصرم (١٨١٩).

وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر المعارضة لسلطته، وخاصة من قبل أهالي الرياض وحريملاء والخرج، فطلب هؤلاء الأهالي العون من «ماجد بن عريعر» لطرد «ابن معمر» قبل أن تتثبت قدماه في الحكم. قامت هذه القوات المتحالفة بمهاجمة «منفوحة» الحليف الرئيسي لابن معمر، إلا أن ذلك الاشتباك انتعى بهدنة قام «ابن معمر» على إثرها بإرضاء «ماجد» بالهدايا كما طمأنه بأنه ليس لديه أية نوايا في تحدي سلطته على مناطق الأحساء، وأبلغه بأنه كان يحكم مناطق «نجد» باسم السلطان العثماني. يمكن أن تكون مثل هذه الاتفاقية قد تمت ضمنياً في المحادثات التي دارت بين

«ابن معمر» و «إبراهيم باشا» الذي تعامل معه وفق اعتبارات ودية. على أي حال وبغض النظر عن ردة فعل «ماجد» للهدايا والتطمينات التي عرضها عليه «ابن معمر»، فيمكن القول إن البدو حسموا المسألة وعاد «ماجد» إلى ديرته محبطاً وخائب الأمل. تمكن «ابن معمر» من توسيع وتعزيز نفوذه في المناطق المجاورة التي استغل أهلها حقيقة ارتفاع الأسعار في الدرعية، فكانوا يرسلون القوافل إليها لبيع منتجاتهم وتحقيق الربح لأنفسهم.

ظلت الرياض وحريملاء والخرج ممتنعة عن الاعتراف بحكمه، وكانت «حريملاء» على ما يبدو متزعمة حركة الانشقاق تلك. ولم يكن هناك شيء يوازي عداء «حريملاء» لـ «ابن معمر» سوى الظهور المفاجئ لـ «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» الذي قدم من الصحراء مع أخيه «زيد» وحظيا بكل الولاء والدعم من أهالي «حريملاء». طلب «فيصل» من أهالي «حريملاء» ومن «تركي» التدخل نيابة عنه كما وعدهم «تركي» بأن يقدم لهم الدعم الفعّال إذا قرروا أن ينظموا انتفاضة ضد الزعيم المحلي «حمد بن راشد». وهكذا أرسل «ابن معمر» ابنه «مشاري» و «زيد» (أخو تركي) على رأس قوة (انضمت إليها خلال المسير قوات من «المحمل» و «سدير»). تمكنت تلك القوات من محاصرة القلعة التي كان «ابن راشد» مستحكماً فيها، وبعد مضي أسبوع على الحصار استسلم «ابن راشد» وفق شروط معينة واقتادوه إلى الدرعية. سرّع احتلال «حريملاء» في خضوع عدد من القرى والمدن في العارض والوشم وسدير، وإعلانها عن ولائها للنظام الجديد.

استُكملت تلك التطورات في بداية شهر آذار عام ١٨٢٠، إلا أنه في نهاية ذلك الشهر تعرض موقف «ابن معمر» لهزة عنيفة استدعت وصول

«مشاري بن سعود» المفاجئ إلى الدرعية. والجدير بالذكر هنا أن «مشاري» هو أحد العديد من إخوة عاثر الحظ «عبد الله»، وأنه بإمكانه المطالبة بولاء الأهالي له بصفته الوريث الشرعي لأمجاد أسرة «آل سعود» الحاكمة.

كان «مشاري» قد تمكن من الإفلات من القوة التي رافقته إلى منفاه في «مصر». وفي المنطقة ما بين «المدينة» و «ينبع» تمكن من الهرب وعاد إلى «القصيم». وفي «الزلفي» و «ثرمدا» تمكن من حشد الدعم الكافي لاستعادة سلطة آبائه. وكان طبيعياً أن يشعر «ابن معمر» بالمضايقة إلا أنه أحجم عن القيام بأي عمل عدائي مكشوف، بل على العكس أعرب عن ولائه للإمام الجديد. وهلت على «مشاري» وفود من الرياض وحريملاء والمحمل وسدير لتبارك له بسلامة الوصول ولتهنئته بالمنصب الجديد. إن أفضل المكاسب التي فاز بها «مشاري» في تلك الفترة كانت انضمام «تركي بن عبد الله» إلى صفه، كما انضم إليه أيضاً عمه «عمر» وأبناؤه الثلاثة، واثنان من أفخاذ عائلة «مشاري» وهما «حسن بن محمد» و «مشاري بن ناصر»، وكانوا جميعاً قد هربوا من الدرعية قبل سقوطها.

كان هم «مشاري» الأول إخضاع إقليم «الخرج» المتمرد، وقد أبدت منطقتا «السلمية» و «اليمامة» بعض المقاومة في البداية لكنهما سرعان ما استسلمتا، وقام «مشاري» أمير تلك المنطقة بخلع «البجادي» من منصبه. تجاوبت «الدلم» بكياسة ملحوظة وعاد «مشاري» إلى الدرعية ليجد أن «ابن معمر» كان قد توجه إلى «سدوس» للراحة بحُجة المرض.

كانت تلك ذريعة أخفى «ابن معمر» وراءها دوافعه الحقيقية في قيادة ثورة ضد «مشاري». رحب زعيم «حريملاء» بخطته ودعاه للقدوم إلى المدينة التي

حولها إلى مقر رئيسي وبدأ منها بحشد قوة لذلك الغرض. هناك تم تشكيل تلك القوة في معظمها من رجال قبائل «مطير» بزعامة «فيصل الدويش» وانضمت إليها قوات أخرى محلية وشنوا هجوماً مباغتاً على العاصمة ودخلوها دون مقاومة تذكر وساروا مباشرة إلى قصر «مشاري». ألقوا القبض على «مشاري» وأودعوه السجن، لكن «ابن معمر» سلم القيادة هناك إلى ابنه وتوجه على رأس قوة إلى الرياض لاعتقال «تركي بن عبد الله» وشخصيات أخرى من عائلة «آل سعود»، وقد هرب «تركي» وجماعته عند سماعهم خبر قدوم «ابن معمر» الذي دخل الرياض دون مقاومة، كما سارع الأهالي إلى الاستسلام له. وانتهت فترة حكم «مشاري» القصيرة وحكم «ابن معمر» تلك المناطق من جديد، لكن هذه المرة باعتراف الأتراك بحكمه، وسارع «ابن معمر» بإبلاغ «عبود باشا» الذي كان قد وصل إلى «عنيزة» على رأس قوة تركية بأنه لم يكن يحكم لصالح السلطات العثمانية فحسب، بل كان ينوي أيضاً تسليم «مشاري» إلى السلطات التركية في اللحظة المناسبة.

كان «تركي بن عبد الله» قد توجه في تلك الفترة مع عدد من أتباعه إلى «ضرما» لأمر شخصي خاص. ووصل ذلك الخبر إلى «ابن معمر» فما كان منه إلا أن أرسل ابنه «مشاري» (الذي كان قد عيّنه حاكماً على الرياض) على رأس قوة لاعتقال «تركي».

استطاع تركي أن يمسك بمشاري وأودعه كأسير عند أهالي «ضرما» واستحكم في أحد قلاع المدينة ليحمي نفسه من خطر مباشر. وكان «تركي» من تلك القلعة يشن غارات ليلية تمكن في إحداها من الاستيلاء على منزل

فيه عدد من المقربين من «معمر» وأتباعه، وبقي «تركي» في «ضرما» يتلقى الدعم من قبيلة «سبيع» ومن مناطق أخرى في الجنوب.

وفي شهر آذار من عام ١٨٢٠ توجه «تركي» إلى الدرعية، وبمساعدة الأهالي هناك تمكن من القبض على «محمد بن معمر»، كما تمكن في وقت لاحق من القبض على ابنه «مشاري» في الرياض، ووعد بأن يطلق سراحهما مقابل إطلاق سراح «مشاري بن سعود» الذي كان لا يزال سجيناً في «سدوس». لكن أهالي القرية خافوا من الإذعان لأوامر «ابن معمر» باعتبار أن قوة تركية كانت قد وصلت للتو إلى ديارهم يرافقها «فيصل الدويش»، لهذا سلموا «مشاري بن سعود» إلى القوات التركية تنفيذاً للوعد الذي قطعه «ابن معمر» على نفسه للأتراك. وعلى الفور قام «تركي» بقتل «ابن معمر» وابنه «مشاري». توفي «مشاري بن سعود» بعد فترة قصيرة من وصوله إلى عنيزة ولا يوجد ما يدل على أن «عبود آغا» كان في أي حال من الأحوال مسؤولاً عن وفاته.

قامت القوات التركية تدعمها جماعة «فيصل الدويش» بهجوم فاشل على الرياض، وبعد ذلك قاموا باستعراض قواتهم في الشمال والجنوب إذ فرضوا إتاوة باهظة على أهالي «ثادق» و «سدير» و «الوشم». هذا ومارست قوات «عبود آغا» نفس التصرف في مناطق «القصيم». وبعودة الأتراك عادت الفوضى كما تجددت الأعمال العدائية المميتة بين العديد من المناطق. ومما زاد من تردي الأوضاع الاقتصادية أن زحفت أفواج الجراد على تلك المناطق. وخلال فصل شتاء عام ١٨٢٠/ ١٨٢١ تم تعزيز القوات التركية المحتلة بقوات أخرى بقيادة «حسين بيه» الذي تسلم زمام قيادة القوات

التركية في «نجد». لكن سرعان ما توجه «حسين بيه» بقواته نحو «الوشم» من هناك أرسل قوة بقيادة «عبود آغا» لمهاجمة الرياض. اشتملت تلك القوة على عناصر مشتركة من الأتراك ومن قرى محلية وقبائل جندها الأتراك بين صفوفهم. شملت تلك العناصر شخصيات هامة كان «ابن معمر» قد نفاها عن «الرياض» و «حريملاء».

استعد «تركي» لمقاومة الهجوم لكن أهالي الرياض لم يعد لديهم جلد على المزيد من القتال، الأمر الذي مكّن «عبود» من دخول المدينة دون مقاومة. تراجع «تركي» بقواته إلى حصن الدرعية ومعه حوالي «سبعين» من أتباعه ليقاوموا الحصار المتوقع، إلا أن التيار كان أقوى من إمكاناته. هرب «تركي» ليلاً بمفرده تاركاً رجاله ليستسلموا في صباح اليوم التالي، فقام الأتراك بذبحهم جميعا ببرودة أعصاب باستثناء «عمر بن عبد العزيز» وثلاثة من أبنائه إذ أرسلوا إلى مصر للعيش مع أقربائهم في المنفى.

ظهر «حسين بيه» على خشبة الأحداث وفرض إتاوة بالغة على أهالي الرياض و «منفوحة»، كما أجبر جماعة «ابن عمر» في الدرعية على مغادرتها، وعلى الفور اقتادتهم القوات التركية إلى «ثرمداء» وهناك تظاهر القائد العسكري لتلك المنطقة ويدعى «خليل آغا» بحسن استقبالهم ووعدهم بأن يعطيهم أراضاً في المناطق التي يختارون الاستقرار فيها. وبناءً على أوامر تلقاها من «حسين بيه» لدى عودته من الرياض قام «خليل آغا» عندما حانت الفرصة باعتقالهم وإعدام العديد منهم وتدمير ممتلكاتهم أو مصادرة ما تبقى منها وكانت تلك بداية عهد إرهابه وترويعه للأهالي في منطقة «نجد»، إذ قامت القوات التركية المرابطة في القصيم، وسدير،

والمحمل، والوشم ومناطق أخرى بسلب ونهب وإعدام الأهالي، لدرجة أن عدداً كبيراً من الناس هربوا إلى الصحراء تاركين ممتلكاتهم ليدمرها الجنود الأتراك. لم تسلم حتى النساء والأطفال من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها القوات التركية. ومع رحيل «حسين بيه» في نهاية ذلك العام كادت قصة القتل والتدمير التي كان الأتراك يمارسونها في كل مكان من «نجد» أن تنتهي، لكنه خلّف وراءه صراعات داخلية مميتة ألحقت الدمار بتلك المناطق وخاصة مناطق «سدير» و «المجمعة» (التي كانت تكثر فيها أعمال الشغب والاضطرابات)، ومناطق «العارض» و «القصيم». وتُوجت مشاهد الرعب التي شهدها ذلك العام باندلاع وباء الكوليرا الخبيث والذي جاء من الهند واجتاح الصحراء العربية مروراً بالخليج العربي والعراق.

تصدرت منطقة «سدير» قائمة القلائل والاضطرابات التي تميز بها عام ١٨٢١/ ١٨٢٢، وحدث في «منفوحة» و «بريدة» أيضاً أعمال قلائل واضطرابات مماثلة، لكن من أهم أحداث ذلك العام وصول القائد التركي الجديد «حسن أبو ظاهر» إلى منطقة «الرس»، الذي ادعى بأنه قدم ليخضع البدو ويسخرهم لخدمة أهالي المدن. وبسبب إطلاقه لسراح العديد من الرهائن الذين كان سلفه التركي قد أمر باحتجازهم في قلعة «ثرمدا»، فقد أعرب الأهالي هناك عن شكرهم وامتنانهم لذلك التصرف. وأرسل أهالي «القصيم» ما يؤكد ولاؤهم له، وأعرب أهالي «المجمعة» وأهالي قرى «سدير» عن ولائهم له أيضاً. لكن إرساله حملة تحت إمرة «موسى كاشف» إلى كل من «المجمعة» و «سدير» لجلب الإتاوة التي اعتاد الناس عليها، أحدثت نوعاً من التذمر الأمر الذي حذا بالجنود الأتراك أن يسلكوا أساليب

أكثر عنفاً ليجبروا الناس على احترام رغباتهم.

قام الأتراك بسلب ونهب العديد من القرى، كما أقدموا على قتل كبار الشخصيات فيها، وفي غارة قادها «موسى كاشف» ضد «السهول» لقي «موسى» مصرعه في وقت كان أخوه «إبراهيم» متوجهاً إلى «الوشم» و«الرياض» اللتان اتخذ منهما مقراً لقيادته، وامتدت سطوة موسى كاشف جنوباً حتى مناطق «الخرج».

قام «حسين بيه» نفسه بالهجوم على «جبل شمر» وأمر الأهالي هناك بدفع الإتاوة المستحقة عليهم منذ رحيل قوات «إبراهيم باشا». وبعد أن تجاوبوا مع المطلب الأول فرض المزيد من المطالب عليهم.

وكعقوبة على المقاومة التي أبداها أهالي «معكال» كعقوبة على رفضهم دفع الإتاوة، أقدم الأتراك على قتل معظم الأهالي، علماً بأنهم استسلموا بعد حصار دام لفترة قصيرة. وفي الفترة نفسها تقريباً قاد «إبراهيم» في الجنوب قوة كبيرة وغار بها على قبيلة «سبيع» المجاورة لمنطقة «الحاير»، إلا أن رجال تلك القبيلة دافعوا عن أنفسهم ببسالة وتمكنوا من دحر القوات التركية وحلفائها من أهالي الرياض ومن مناطق أخرى. وقد قتل في تلك المعركة «إبراهيم» وقتل معه ثلاثمائة من الجنود الأتراك، لكن تمكن زعيم منطقة الرياض «ناصر العائذي» من الهرب إلا أنهم تقفوا أثره وذبحوه في المغارة التي كان مختبئاً فيها.

وبعد أن ترك الرياض احتجب «تركي بن عبد الله» في منطقة «الحوطة» بعيداً عن الأنظار، وفي تلك الفترة كانت القوات التركية مشغولة في جمع الإتاوات وفي إرسال الحملات التأديبية ضد القوى والقبائل الحرون

المتمردة. وفي عام ١٨٢٣ وخلال شهر رمضان المبارك ظهر «تركي» من مخبأه ومعه ثلاثون رجلاً من أتباعه وتوجه بهم إلى قرية «عرقة» في وادي حنيفة بين الدرعية والرياض، وهناك مكث لفترة من الزمن ليستطلع الأوضاع وليجس النبض. وكان أول من رحب به وقدم له الدعم زعيم منطقة «شقراء» المدعو «حمد بن يحيى بن غيهب». أرسل «تركي» ابن عمه «مشاري بن ناصر بن سعود» إلى سويّد زعيم «جلاجل» (الذي حدث أن اصطدم في العام الماضي مع الأتراك)، وناشده أن ينضم إليه بأكبر عدد من الرجال المسلحين. وبعد وصول هذه القوة التي أتت استجابة للمناشدة رفع «تركي» من جاهزية الثورة ضد الأتراك وسار بقوته إلى الرياض التي كانت تحت رحمة الحامية التركية بقيادة «أبو علي الهلولي المغربي». وعلى أي حال فشلت محاولة «تركي» تلك وأصيب «سويّد» ورجاله بالجبن وفروا عائدين إلى ديارهم تاركين «تركي» يتصدى للأتراك مع نفر قليل من أنصاره. بادر الأتراك وأنصارهم بالهجوم على «تركي» وحاصروه مع رجاله في منطقة «عرقة» لكنهم لم ينالوا منه، واستمرت الأعمال العدائية بين الطرفين حتى حلول شهر أيلول حيث قام تركي (بعد أن ترك قوة صغيرة في عرقة) بمهاجمة قرية «ضرما» الحيوية واستولى عليها بشجاعة وبسالة فردية استهوت مخيلة العرب جميعاً.

في تلك الأثناء بدأ «حسن أبو ظاهر» (الذي كان قد رجع من حملته ضد حائل) يواجه مشكلات في «القصيم» بسبب استياء الأهالي من الإتاوة التي كان يفرضها على أرزاقهم، كما أن إقدامه على سجن حاكم «عنيزة» الموالي للأتراك والمدعو «عبد الله الجامع» وعدد آخر من وجهاء المنطقة، شجع

obeikandi.com

الناس على الثورة ضده وإجباره على الاستسلام وفق شروط وافق بموجبها على سحب قواته (بما فيها قواته في «ثرمدا») والتوجه بها إلى «المدينة». وعلى أي حال قد ترك ورائة فرقة صغيرة في قلعة «الصفا» في «عنيزة» لكنها سرعان ما استسلمت وخرجت من تلك المنطقة تتبع آثاره. ولم يبق من الحاميات التركية سوى الحاميات الموجودة في «الرياض» و «منفوحة» والتي كانت تتعرض لأعمال عدائية من قبل الأهالي في هاتين المنطقتين.

بدا «ماجد بن عريعر» مستقراً مسيطراً على الوضع في إقليم «الأحساء» الذي لم يكن لدى الأتراك أية نية في دخوله، وكان أمام «تركي» العديد من المشكلات الملحة التي استوجب عليه التفكير فيها أكثر من التفكير في مستقبل أقاليم الخليج. واجه «ماجد» وتقريباً في نفي هذه الفترة تحد من قبل «فيصل الدويش» الذي كان يقود قوة ضمت عناصر من رجال قبائل «مطير» و «العجمان» وهو حليف قديم للأتراك. نشبت معركة بين الاثنين في منطقة «الرضمة» في سهول «العرمة» وانتهت بهزيمة نكراء منيت بها قبيلة «بني خالد»، لكن «فيصل» لم يكن في وضع يمكنه من متابعة الانتصار الذي حققه.

اندلعت مشكلة كبيرة للمرة الثانية في إقليم «سدير»، لكن تفاصيل تلك المشكلة أقل أهمية من حقيقة أن «تركي بن عبد الله» غادر «ضرما» في شهر تموز متوجها إلى «ثادق» ليتدخل في تلك القضية. هناك لاقت مناشدته للأطراف المتناحرة للتوقف عن الاقتتال لخير وسعادة الجميع استجابة طيبة ونتيجة فورية، إذ سارع زعماء القرى والمدن في منطقة «سدير» بإعلان

ولائهم للأمير «تركي».

سار الأمير «تركي» على رأس قوة حشد رجالها من أهالي «المحمل» نحو «جلاجل» التي كانت تعتبر بؤرة كل المشكلات، لكن الأهالي هناك لم يجابهوه بل رحبوا به وأعربوا عن ولائهم له.

تردد أهالي «المجمعة» في البداية في الالتزام ودعم موقف «تركي»، لكنهم أعادوا النظر في موقفهم عندما قدم إليهم بقوة كبيرة ليفرض عليهم الحصار. أقال «تركي» زعيم «سدير» والذي كان يدعى «مزيد» وعين مكانه «محمد بن صقر» وهو من وجهاء منطقة «العمارية»، ووضع تحت إمرته حامية لتدافع عن القلعة الموجودة هناك. وسارع الناس مجدداً لأداء يمين الولاء إلى «تركي» وإن لم يكن هو حفيد من سليل مباشر لـ «آل سعود» حكام «نجد» الأوائل. مكث «تركي» في «المجمعة» حوالي شهر عمل خلاله على إعادة ترتيب الأمور الإدارية للإقليم والمناطق المجاورة له، وأثناء وجوده هناك قام أهالي «الغاط» و «الزلفي» و «شقراء» وقرى أخرى من منطقة «الوشم» بإرسال ممثلين عنهم لمبايعته.

وهناك وجد «تركي» الخيام ومعدات المعسكرات التي خلفها الأتراك ورائهم بعد آخر حملة لهم على تلك المنطقة، فصادرها جميعها، وما إن نظم قوة مناسبة جمعها من الرجال المحليين حتى سار بها إلى «حريملاء» التي لم تبد أي تحفظ في دخولها ضمن معسكر «آل سعود» للمرة الثانية. وعندما أصبحت قوته مستعدة للهجوم وبعد أن جهزت سلالم التسلق على الأسوار، بعث الأمير «تركي» بتحذير إلى أمير حريملاء «حمد بن راشد» قال فيه إنه إذا لم يخرج من البلدة ويبايعه قبل اختفاء القمر فسيقتحم «تركي» مع

قوته البلدة ويقابله في ساحتها الرئيسية. استسلم «حمد» لكن «تركي» عامله بكل الحفاوة والتكريم وثبته في منصبه أميراً على «حريملاء» ولم يصب ممتلكاته وممتلكات أسرته بأي أذى. وهكذا انضمت قوات «حريملاء» إلى قوات الأمير «تركي» الذي قادها جميعها في غزو لمنطقة «منفوحة» التي استسلمت «منفوحة» دون مقاومة، إذ خرج أميرها شخصياً ليعرب عن استسلامه. تمكنت قوات الأمير «تركي» من طرد الحامية التركية التي انضمت إلى القوات التركية في الرياض. وفي شهر آب من عام ١٨٣٤ أصبحت الرياض الهدف المباشر الذي يستحوذ على كل اهتمام الأمير «تركي».

هاجم الأمير «تركي» الرياض إلا أن «حمد العائذي» الذي تسلم زمام الإمارة إثر موت أخيه الأمير «ناصر» في «الحائر» لم يكن راغباً في الاستسلام، فدار قتال حول المدينة ووقعت إصابات بين الطرفين، فأمر «تركي» قواته بأن تجمع جني واحات النخيل لتستفيد منه، وفعلاً جمعت ثمار أشجار النخيل تحت أنظار الحامية العسكرية المعادية التي لم تستطع أن تحرك ساكناً، وحاصر «تركي» البلدة لمدة شهر تقريباً ورفع الحصار عنها عند ظهور «فيصل الدويش» على رأس قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت قد قدمت لتدعم الحامية العسكرية هناك. وعليه تراجع «تركي» بقواته نحو «عرقة» لكن ليعود ويفرض على الرياض حصاراً أشد وأعتى من الحصار السابق، والجدير بالذكر أن بدو «مطير» رحلوا بعد أن مكثوا في جوار الرياض لفترة قصيرة.

ومع مرور الأيام طلب القائد التركي التوصل إلى سلام بين الفريقين

المتحاربين، وتم ترتيب شروط الاستسلام على أساس أن تغادر القوات التركية بشكل نهائي إلى «المدينة». بعدها تم تعيين «مشاري بن ناصر» حاكماً على منطقة الرياض، وسار «تركي» على رأس قوة متوجهاً إلى «ثرمدا» و«شقراء» ليتأكد من أن القوات التركية لن تفكر في البقاء في تلك المنطقة بشكل يخالف تعهدهم بالجلاء عنها. وبينما كان في «شقراء» تسلم الأمير «تركي» رسائل كما قدم إليه المبعوثون من «عنيزة» ومن باقي مناطق «القصيم» ليعربوا عن ولائهم له. وعندما اجتازت القوات التركية منطقة «الوشم» في طريقها إلى «المدينة» عاد «تركي» إلى الرياض التي أصبحت منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة «نجد».

وأثناء سقوط الرياض كان أهالي «الحوطة» و «الحريق» قد أرسلوا وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم للنظام الجديد، ومع انضمام وتماسك «القصيم» و«الوشم» وجد «تركي» نفسه مسيطراً على كافة مناطق «نجد» باستثناء إقليم «الخرج». وعلى أي حال لم يكن «تركي» على عجلة ليتعامل مع بعض الأشخاص الذين نادراً ما يمكنهم أن يلحقوا الأذى به، فتريث حتى عام ١٨٢٥، وبعدها أخضع إقليم «الخرج» لسلطته. أبدى أمير الدلم «زقم بن زامل» بعض المقاومة، ولكن سرعان ما استسلم لقاء أن يضمن سلامته وسلامة أتباعه. تم ترتيب هذا الاتفاق وبسهولة واستولى الأمير «تركي» على القلعة وأخذ كل معداتها الحربية، وأرسل زقم إلى الرياض ليعيش ضيفاً على السلطة هناك. هذا وخضعت «السلمية» و«اليمامة» دون أية مقاومة جادة، وأصبح بإمكان الأمير «تركي» أن يعود وبحرية إلى عاصمته الجديدة مع علمه الأكيد بأن كافة مناطق «نجد» قد تحررت من السيطرة

الأجنبية وعادت إلى التحالف السعودي. وبعد فترة وجيزة من وصوله إلى «عرقة» تمكن الأمير «تركي» من تأمين قدر كاف من الموارد المادية، ويعود الفضل الكبير في نجاحه التام وبفترة قصيرة في ذلك الأمر إلى شخصيته القوية التي شملت على جاذبية أخاذة وعلى سلطة نافذة، ناهيك عن هالة البطولة التي جسدتها شجاعته في أذهان الناس. ويقال بأن الإمام «سعود» كان يتمنى لو أن يرث «تركي» الحكم من بعده، إلا أن «تركي» لم يرغب في ذلك لأنه كان دائما مخلصاً لـ «عبد الله»، كما أن الكل كان يعترف بأن «تركي» كان روح وشريان الدفاع عن الدرعية. كما كان مستعداً للتعاون مع ابن معمر ومشاري بما يخدم مصلحة البلاد، ويعود الفضل جزئياً في نجاحه في مهمته إلى سياسة العنف والتعسف التي مارسها الأتراك في البلاد بدلاً من تسيسها. كما يعود الفضل في ذلك أيضاً إلى تعب وملل أهالي «نجد» من الفوضى والاضطراب اللتان تقبلهما الأهالي في بداية الأمر فقط ليستريحوا قليلاً من الانضباط الذي فرضه عليهم النظام التركي.

يمكن اعتبار أن عهد حكم الأمير «تركي» بدأ مع وصوله إلى «عرقة» في شهر آيار من عام ١٨٣٢، وبدأت سلطته بشكل فعّال حقاً من استسلام الحامية التركية في شهر تشرين الأول من عام ١٨٣٢، في الرياض، إذ بدأ الأمير «تركي برنامج إصلاح اقترن باسمه واشتمل على ترميم الأسوار وبناء القصر والمسجد الكبير وقفت جميعها كمعالم هندسية رئيسية في عاصمته إلى أن هدمت في عام ١٩٥٠ ليشاد مكانها صروح حديثة أكبر وأوسع. وإلى جانب هذه النشاطات انشغل الأمير «تركي» في تنظيم الأمور الإدارية بالمناطق والأقاليم التابعة لسلطته، فعين حكاماً وقضاة ممن يعتمد عليهم في

تطبيق الشريعة وحفظ السلام دون خوف أو محاباة: فعين على إقليم الخرج «عمر بن عفيصان» الذي ذبح الأتراك عدداً كبيراً من عائلته في «الدلم» أثناء انسحابهم النهائي منها.

كان هروب «عبد الرحمن بن مشاري بن سعود» من مصر ووصوله إلى الرياض، بمثابة سبب وجيه لتعيينه أميراً من عائلة «آل سعود» على بلدة «منفوحة»، والحدث الهام الآخر كان ظهور الشيخ «عبد الرحمن بن حسن» (حفيد محمد بن عبد الوهاب) والذي عينه «تركي» في منصب قاضي الرياض وبقي في ذلك المنصب لعدة سنوات إلى أن تقاسمه أخيراً مع ابنه وتلميذه «عبد اللطيف»، فكان للوالد والابن دوراً كبيراً في استتباب الدين كعنصر فعال في حياة العرب، علماً بأن الدعوة الدينية لحركة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لم تصل إلى مستويات التعصب والغلو. إن ما ساهم في استعادة سلطة وحكم «آل سعود» (خلال عهد تركي وفيصل) كان باعثا سياسياً بقدر كونه دافعاً دينياً، علماً بأن الأسس الدينية لتوجهاتهم السياسية لم تكن محجوبة تماماً. لم تسيطر الفورة والنشاط الديني على حياة العرب بشكل تام إلا في العقد الثاني للقرن العشرين في عهد الدولة السعودية الحديثة.

لم يكن هناك ما يجعل الأمير «تركي» يسارع في تلك المرحلة في توسيع حدود مملكته، لذا تريث حتى شتاء عام ١٨٢٦/ ١٨٢٧ حيث نظم حملة لمحاربة قبيلة «بني خالد» التي كانت قد عبرت صحراء «الدهناء» واستقرت بجوار آبار «حفر العتش». كلف «مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن

مشاري بن سعود» بقيادة تلك الحملة، ويقول «ابن بشر» بأن مشاري هذا هو ابن عم «تركي» وأنه أصيب بجرح في مواجهة دارت بينه وبين البدو لكنه ألحق بهم هزيمة تامة.

تميز هذا العام بالجفاف والقحط والمجاعة التي تسببت في موت العديد من الناس في إقليم «القصيم» و «سدير». عين «تركي» في ذلك العام حاكماً جديداً على إقليم «سدير» ويدعى «محمد بن عبد الله» وهو من «ضرما». والأبرز أيضا بين أحداث ذلك العام كان موت «رحمة بن جابر» من رجالات الخليج المشهورين في أحد الاشتباكات البحرية التي حدثت ضمن سياق حملة قادها ضده الأمير «ماجد بن عريعر» والتي ساعده فيها بشكل ملحوظ حكام «البحرين» و «القطيف». تولى ابنه «بشر» مهمة قيادة دفة الأمور في مقر القيادة بالدمام، إلا أنه سرعان ما حوصر وأجبر على الاستسلام. كان «رحمة» صديقاً وحليفاً مثالياً لعائلة «آل سعود» كان ذلك قبل أن تحل بهم مصيبة الدرعية، لذلك جاءت وفاته لتقوي شوكة «ماجد» كحاكم على إقليم الأحساء.

كان للغارات العابرة المتقطعة في «الوشم» وفي أماكن أخرى دوراً في تقلب برنامج إعادة البناء الذي نهجه الأمير تركي والذي كان يمكن أن يسير بشكل مستقر لولا تلك الغارات. وباءت أيضاً الآمال المعقودة على جني محصول وافر نتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في خريف عام ١٨٢٩ بالفشل بسبب سقوط مطر متواصل طيلة شهر نيسان حيث أدت مساهه المتجمعة في أماكن الحصاد إلى تعفن الحبوب والتبن، كما أن ثمار النخيل

obeikandl.com

التي نضجت خلال ذلك الصيف أصيبت بحشرة أتلفت كافة المحصول.

استمرت هذه الظروف الزراعية غير المواتية على مدى العام التالي لكن على مستوى أخف. توجب على الأمير «تركي» في ذلك العام ووسط تلك الظروف أن يواجه قبيلة «بني خالد» التي تعدت على حدود مملكته. كما توجب عليه أيضاً في تلك الفترة التصدي للاعتداء الذي قامت به جماعة «العجمان» بالقرب من «بنبان» (أو ربما يقال له ممر بنبان). يصف المؤرخ التاريخي المختص بشؤون «نجد» ذلك العام على أنه عام أخبار طيبة وخيرات وكأن ساحة تلك المنطقة بدت - على الأغلب - خالية من الأحداث.

الحق يقال إن الزيارة التي قام بها حاكم «جبل شمر» المدعو «عيسى بن علي» إلى الرياض ليعلن البيعة للأمير «تركي» وليضع إقليمه تحت تصرفه شكلت تطوراً هاماً عى صعيد الأحداث. كما أن عودة ابن تركي الأكبر والمدعو «فيصل» إلى الرياض بعد أن هرب من الأسر في مصر، لم تكن مجرد حدث محلي سار بل كانت بشرى خير لمستقبل الأسرة الحاكمة ولمستقبل البلد ككل.

تطلبت المشكلات المحلية التي حصلت في «القصيم» تدخل الأمير «تركي» بشكل فوري، فاستدعى قادة الأقاليم وقدموا إلى الرياض ليجددوا البيعة والولاء والطاعة. وفي ذلك الحدث أعفى الأمير «تركي» حاكم بريدة «محمد العلي الشاعر» من منصبه وعين في مكانه «عبد العزيز بن محمد بن عبد الله». وفي ربيع ذلك العام شن «تركي» حملة غزو على جماعة «مطير» والعناصر المؤيدة لهم من قبيلة «بني خالد»، وداهمهم في ممر الصمان وألحق

بهم هزيمة نكراء، وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأت تصل إليه الوفود من القبائل المقيمة في وسط نجد مثل (سبيع، السهول، العجمان، مطير، قحطان) لتعرب عن ولائها ودعمها الكامل لنظامه. تعاظم استقرار ونفوذ نظام الأمير «تركي» بوصول وفد أهالي «عُمان» الذي ناشد الأمير «تركي» في تقديم الدعم لهم ضد أعدائهم وطلب منه أن يرسل لهم جيشاً وأن يعين عليهم حاكماً وقاضياً. واستجابة منه لهذا المطلب أرسل «عمر بن محمد بن عفيصان» على رأس حملة قوية بشكل كاف لتشرف على تنصيب «عبد الله بن مسعود» (من القويعية) كحاكم على ذلك الإقليم، على أن تكون «البريمي» مقراً لقيادته. كما أرسل الشيخ «محمد بن عبد العزيز العوسجي» ليتسلم منصب القاضي هناك، ولدى وصولهم إلى هناك خرجت الوفود من الظاهرة (أو من المناطق الواقعة خلف ساحل القرصان)، كما جاءت جماعات من الباطنة من المناطق الساحلية العمانية لترحب بهم ولتعرب عن ولائها لحكم الأمير «تركي».

في تلك الأثناء استدعى الأمير «تركي» الذي كان يرافقه ابنه «فيصل» العشائر من مناطق شاسعة بدءًا من وادي الدواسر في الجنوب وباتجاه الوشم وسدير ليعرض عليه خطط مواجهة موسمي الخريف والشتاء، ويبدو أنه قصد من تلك التظاهرة إظهار التضامن فيما بينهم أكثر من إظهار أي سبب آخر، فعين منطقة الوشم لتكون مكان ملتقى القوات، لكن بسبب اندلاع وباء الكوليرا هناك، سرعان ما قرر أن يكون الملتقى في مرتفعات طويق. تفشى هذا الوباء بين الجنود ومات منهم العديد في معسكر «المجمعة» لكن الوباء لم يصل إلى المدينة.

أرسل الأمير «تركي» ابنه «فيصل» في غارة شنها على ناحية من نواحي «عنزة»، إلا أن رجال القبائل هناك غافلوه وتمكنوا من الهرب، مكث «تركي» في «المجمعة» لمدة شهر عمل خلاله على ترتيب أمور الإقليم، فأقال حاكم سدير المدعو «ابن عبد الله» من منصبه وعين مكانه «أحمد بن ناصر الصانع».

مر صيف عام ١٨٣٩ بدون أحداث، لكن الأمير «تركي» أرسل في خريف ذلك العام «محمد بن عفيصان» على رأس حملة لغزو «الأحساء». ويدل على ذلك نية الأمير «تركي» في إحكام قبضته على حكم «العريعر» في ذلك الإقليم، لكن في حقيقة الأمر قام الأخوان «محمد وماجد العريعر» بالمبادرة بإعلان الحرب على «تركي»، وحشدوا لذلك الغرض قوة كبيرة في منطقة «الصمان»، وعلى الفور قام الأمير «تركي» بتجميع رجال العشائر ووضعها تحت إمرة «فيصل» لمواجهة ذلك الخطر، ودارت معركة شرسة ومتوازنة حول موارد مياه «عقلة» القريبة من سبخات «خفيسات المهماري». استمرت المعركة بدءاً من حوالي منتصف شهر شباط حتى الرابع والعشرين منه والذي صادف اليوم الأول من رمضان الذي قتل فيه «ماجد بن عريعر». وبعد أن أصبح «فيصل» واثقاً من الانتصار أطلع والده على الأخبار الجيدة، فما كان منه إلاأن سار بتعزيزات قوية ووصل إلى هناك في منتصف شهر آذار، حيث تجددت المعركة بضراوة وشراسة من قبل الفريقين إلا أن قوات الأمير «تركي» بدأت في التفوق التدريجي إلى أن قامت في الثامن والعشرين من شهر آذار بشن هجوم بكامل قوتها على مواقع العدو الذي أسفر تراجعه عن هزيمة نكراء في صفوف العريعر وفرار قسم منهم وكان من بين الفارين محمد بن عريعر واتباعه.

إلا أن رجال قبيلة «مطير» الذين كانوا يراقبون تطور أحداث المعركة قرروا الانسحاب قبل أن يقوم «تركي» بهجومه الكبير، الأمر الذي ساهم في تحقيق الفوز لصالح قوات الأمير «تركي».

وبعد مضي أسبوعين سار «تركي» وابنه «فيصل» بالجيش نحو «الأحساء» وكانا قد أرسلا رسلا ليبلغوا القادة هناك بالاستسلام ويطلبون من القبائل والقوى مبايعة الأمير «تركي». استسلم العديد من القبائل والقرى، إلا أن «محمد بن عريعر» وأقربائه وأتباعه سارعوا في تعزيز قلاعهم استعداداً للمقاومة، وعند ظهور أول قوات الأمير «تركي» لاذ العديد من زعماء قبيلة «بني خالد» بالفرار. كانت قوات «تركي» قد استولت على بلدة «الهفوف» دون مقاومة وأقامت مقراً لقيادتها على هضبة «أبو غنيمة»، عندها قدم رجال الدين والمدن والقرى المختلفة إلى مقر قيادة الأمير «تركي» ليعربوا عن استسلامهم وليقسموا يمين الولاء له، وفي تلك الأثناء كان «محمد» يرابط في قلعة «القط» الكبيرة في الزاوية الشمالية الغربية من «الهفوف»، وعندما طلب منه الأمير «تركي» أن يستسلم وفق شروط مشرفة هلل بأعلى صوته، وأخذ إقليم «الأحساء» مرة ثانية مكانته في الدولة السعودية.

مكث «تركي» وابنه «فيصل» في تلك المنطقة لفترة شهر ونصف قاما خلالها بترتيب الأمور وتلبية الاحتياجات الدينية للأهالي الذين تم دعوتهم إلى طاعة الله وشكره على نعمه وإلى أداء الصلاة في المساجد بانتظام، كما طلب منهم بشكل عاجل الالتزام بنمط القيادة الدينية المتبعة في مذهب أهل السنة والجماعة.

عين «عمر بن عفيصان» حاكماً على ذلك الإقليم وأسندت شؤون الأمور

الدينية فيه إلى الشيخ «عبد الله الوهيبي». هطلت في ذلك العام أمطار غزيرة وجاءت مواسم خيرة ومحاصيل وافرة، وهبطت الأسعار لتختم عام شهد العديد من الإنجازات الكبيرة. لم تسجل السجلات التاريخية بـ «نجد» أية أحداث بارزة إلا بعد حلول عام ١٨٣٠.

ومع نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨٣١ كان الأمير «تركي» يعد لحملة يغزو فيها «حفر الباطن» على الحدود العراقية. وعليه هدأت الأمور وسار بقواته نحو «الصبيحية» في أراضي الكويت، ومكث هناك لفترة طويلة قدم له خلالها زعيم الكويت «جابر بن عبد الله بن الصباح» الهدايا كما قدمت القبائل هناك بمبايعته. وأثناء إقامته هناك وصلته أخبار مزعجة من الرياض، فتحرك من هناك على الفور ليتأكد بنفسه من صحتها.

مما سيبقي في الذاكرة أنه قبل بضع سنوات من تعيين «تركي» لابن عمه «مشاري بن عبد الرحمن» حاكماً على «منفوحة»، ومن المحتمل أن يكون «تركي» قد أرسل نفس هذا الشخص «مشاري» على رأس حملة ضد قبيلة «بنى خالد» في «حفر العتش»، ويبدو أن مشاري بن عبدالرحمن استغل الفرصة للبدء في تنفيذ تطلعاته بالتمرد على تركي في تنفيذ تطلعاته بالتمرد على تركي ولذلك توجه شمالاً للبحث عن مؤيدين له في حركته الأمية الوصول إلى الحكم.

وفي منطقة «المستوى» جابهه أحد زعماء قبيلة «مطير» وصد تقدمه، وإثر ذلك التمس العون من جماعات مختلفة في منطقة «القصيم» إلا أنه لم يفلح ذلك، وبعدها ناشد شريف مكة المدعو «محمد بن عون» لكنه لم يكن مهتماً

بمعارضته للأمير «تركي». غادر «مشاري» مكة يائساً وهو يدرك أن أهالي «نجد» ليسوا مهتمين فعلاً بالتمرد على الأمير «تركي»، وعليه قرر العودة إلى الرياض وإلقاء نفسه تحت رحمة عمه. استقبله عمه بلطف وقدم له نزلاً ليقيم فيه بالقرب من القلعة، ويحدد المؤرخ «ابن بشر» تاريخ عودة «مشاري» وعفو الأمير «تركي» عنه بقوله إن ذلك حدث في نهاية شهر آيار من عام ١٨٣٢، وإذا كان ذلك التاريخ صحيحاً فيجب علينا أن نفترض أن «مشاري» مكث في مكة لفترة طويلة جداً من ذلك العام، ولم يترك أي أثر يذكر على تاريخ «نجد» المعاصر.

وفي شهر حزيران من عام ١٨٣١ قاد «فيصل» حملة قوية وتوجه بها إلى أعالي «نجد» لغزو عتيبة، والحق بها هزيمة كبيرة بالقرب من آبار «طلال». وفي تلك الحالة من الفوضى عاد رجال القبائل ومعهم تعزيزات من تجمعات قبائل «مطير» التي كانت تقضي الصيف في المناطق المجاورة، فدارت الدائرة على المنتصرين إلا أن «فيصل» وفرقة الحرس الخاصة به غطت انسحاب قواته وتراجعها باتجاه «القويعية» وهي تحمل معها غنائم أول معركة. اشتملت تلك الغنائم على نحو ثلاثة آلاف جمل.

سبق هذا الحدث - وبالتحديد في الجزء الأول من شهر آيار (مايو) - أن هبت عاصفة هوجاء عنيفة اجتاحت معظم مناطق «نجد» وخلفت الكثير من الضرر والخراب في واحات النخيل، علماً بأن السجلات التاريخية تشير إلى أن الضرر لحق بأشجار النخيل الصغيرة وأن جذوع الأشجار الطويلة قاومت عنف الريح وبالتالي تعرضت للقليل من الأضرار. صادف موسم حج هذا

العام في نفس هذه الفترة (أي حوالي نهاية نفس هذا الشهر)، وتعرض الحجاج إلى الإصابة بوباء الكوليرا ومات الآلاف منهم ومن مرافقيهم، وبالمناسبة نقول إن المؤرخ «ابن بشر» يسرد عدداً من الظواهر الفلكية وأخرى لها علاقة بالظواهر الجوية التي سبقت هذه الأحداث، ولهذا يبدو وكأنه يتنبأ بحدوث وباء يسمى «الطاعون الدبلي» الذي ضرب مناطق العراق والكويت، إلا أنه ولمدة عام كامل (بدءًا من شهر آب عام ١٨٣٢) بقي خارج مناطق «نجد». ومن بين الظواهر التي ذكرت أعلاه كانت الظواهر التالية:

١ - ظهور الألوان الساطعة والمزركشة في السماء وكأن نور القمر سطع بشدة خلال الليالي الخمس الأواخر من شهر صفر (المصادف لأي يوم من الأيام بين الخامس والعاشر من شهر آب).

٢ - كانت الشمس عند حوالي نهاية شهر آب أو بداية أيلول تشرق باللون الأخضر.

٣ - ظهور أضواء الشفق القطبي الشمالي خلال الليالي الأولى من شهر أيلول، الأمر الذي حمل الناس على الاعتقاد بأن الشمس لم تغرب بعد.

وأخيراً وعند نهاية شهر أيلول أو مع بداية شهر تشرين الأول، ظهر اقتران الكواكب الخمس (الشمس والقمر، والمريخ، وزحل وعطارد) ضمن مجموعة نجوم برج الأسد.

أمضى الأمير «تركي» فصل ربيع عام ١٨٣٢ في صحراء «عرقة» دون أن يستحوذ على فكره أي شيء معين باستثناء بعض التقارير التي كانت تصل

إليه بين الحين والآخر والتي تفيد بعدم دفع بعض القبائل ما يترتب عليها من الجبايات. تطلب ذلك الأمر إعداد حملة لإجبارها على الدفع، فأرسل «تركي» في أواخر الصيف أو بداية الخريف ابنه «فيصل» ليؤنب ويوبخ إحدى عشائر «عنزة» التي كانت ترعى إبلها في الدهناء، إلا أنهم تمكنوا من الفرار بعد أن وصلتهم أخبار تقدم قوات «فيصل» باتجاههم. توقف «فيصل» للاستراحة بقواته في «المجمعة» وهناك جلب إلى صفوفه بعض المقاتلين ونظم قوة لغزو «عُمان» لتكون تحت قيادة «عمر ابن محمد بن عفيصان» ولا تتوافر في السجلات التاريخية أية تفاصيل عن تلك الحملة. وبعدها عاد «فيصل» إلى الرياض.

قاد الأمير «تركي» حملة ضد إقليم «الأحساء»، واستغل زعيم «المرة» هذا الظرف وأعلن استسلامه إلى الأمير «تركي»، وعندما سمع «فلاح بن حثلين من العجمان» بذلك استسلم بدون شروط، عرّج «تركي» بعد ذلك على منطقة القطيف وهناك قابله الأهالي بالهدايا وبايعوه على الولاء له، وأمضى بعد ذلك شهراً في منطقة «الهفوف» قبل أن يقفل راجعاً إلى الرياض. توقف «تركي» في طريق عودته عند موارد مياه «وثيلان» إلى الغرب من الدهناء ليعقد مجلس قبلي تحدث خلاله عن رأيه حول مفهوم الحكومة الجيدة، وعندما طلب منه أمير «بريدة» أن يكون أكثر دقة أو أن يوضح التلميحات التي أشار فيها إلى تقصير القادة أجاب الأمير «تركي» قائلاً: «في الواقع قصدت بأن أوجه كلامي إليك شخصياً وإلى أمثالك، إذا كنت تظن بأنك فتحت البلاد بقوة سيفك فاعلم بأنها فتحت بسيف الإسلام، وأن سيف الإسلام دافع عنها ووحدها تحت زعيم واحد».

فُض الاجتماع وسط مزاج دل على تهجم وخضوع لرجل قوي قادر - كما كان يعرف الجميع - على أن ينتقل من مجرد الضوابط إلى حيز التصرف الفعلي وذلك لإخماد أي فساد على أي مستوى كان. أكد الجميع على ولائهم وانصياعهم لرغباته، إلا أن الضرورة التي استدعت أن يتحدث الأمير «تركي» بهذه اللهجة الواضحة في مثل ذلك الوقت وبالتحديد بعد أن استعاد أمجاد الإمبراطورية التي خسرها «عبد الله»، لتدل على أن هناك الكثير من الأعمال التي كان يتوجب على «تركي» القيام بها ليعدل حمولة سفينة الحكم ويجعلها تسير بشكل متوازن.

دلت الأحداث بوضوح على أنه لم يكن أمام الأمير «تركي» كحاكم على البلاد أي خيار آخر، إذ مهدت الحزازات الشخصية المتعصبة البائرة بين القبائل والقرى الطريق أمام ظهور حركات التمرد كما حرضت على الفتن والعصيان، وإن موت «فيصل الدويش» مباشرة بعد هذا اللقاء أضعف زعامة قبيلة «مطير» القوية والغير مستقرة، والتي تولى زمام الحكم فيها ابن فيصل المدعو «محمد المكني».

إن عودة «مشاري» التي حدثت في هذه الأثناء كما أشرنا سابقاً كانت مسألة أكثر جدية، إلا أن الخطوات التي اتخذها «تركي» للترحيب به وإعداد كل الترتيبات من أجل راحته، كان لها دور في فض معظم التعقيدات التي كان من الممكن أن تنجم بسبب وجوده في «نجد». وبسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت تحسنت الأوضاع الاقتصادية لدرجة كبيرة، وذلك بالرغم من موجة البرد الشديد التي طغت على المنطقة خلال شتاء عام ١٨٣٢/ ١٨٣٣، ويقال إن الماء كان يتجمد أثناء رفعه من الآبار، كما أن أشجار النخيل

تضررت كثيراً بسبب الصقيع، إلا أن الأثر المباشر للبرد على تلك الأشجار لم يظهر إلا مع حلول موسم جني الثمار في فصلي الصيف التاليين.

أنهت الأحداث التي في منطقة «الزبير» و «البصرة» و «تهامة اليمن» حالة الهدوء النسبي التي سادت في المناطق الخاضعة لحكم الأمير «تركي»، فقد تعكر صفو الأمن فعلياً هناك في صيف وخريف عام ١٨٣٣ بسبب المعركة التي طال مداها في منطقة «المربع» بمنطقة السر والتي كان أبطالها الرئيسيون قبيلتي «عنزة» و «مطير» وإلى جانبهم حلفاؤهم الذين تجمعوا على الأغلب من قبائل البدو في الصحراء. ولسبب ما أحجم الأمير «تركي» عن أي تدخل بين القبيلتين، وانتهى القتلى بينهما إلى هزيمة عنزة والمتحالفين معها. ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه من المحتمل أن الأمير «تركي» كان منشغلاً بمشكلة «مشاري»، لكن «ابن بشر» يطرح في نفس الوقت تفسيراً آخراً يمكن أن يكون أكثر احتمالاً وهو أن موقفه السلبي نجم عن قلقه حول استقرار الوضع في إقليم «الأحساء» والذي وصلته منه أخبار مفادها أن ثمة مشكلة كانت تتقد في منطقة «القطيف».

كانت الحرب قد اندلعت هناك بين جماعة «جزيرة آل عمر» وحاكم القطيف «عبد الله بن غانم»، الأمر الذي أدى إلى قطع طرق التموين من الميناء. نظم الأمير «تركي» مجموعة من قواته وضع «فيصل» أميراً عليها وأمره بالتوجه بها لإقالة بعض منسوبيه أو أتباعه، وأثناء تقدمه بتلك القوة على طول منطقة آبار «الرمحية» الواقعة عند أطراف الدهناء، قام بمهاجمة جماعة ضايقته بكثرة مطالبها فهزمها وهربت إلى قلعة الدمام التي كانت تابعة لحاكم البحرين، فطاردهم «فيصل» حتى وصل إلى «سيهات» وهناك

أعد الترتيبات اللازمة لمحاصرة الحامية المعادية، واستولى في تلك الفترة أيضاً على جزر «تاروت» و «الدارين» ووضع فيها حاميات مقاتلة. لكن نشاطاته تعرقلت بسبب الأخبار السيئة التي وصلته من الرياض والتي مفادها أن عناصر موالية لـ «مشاري بن عبد الرحمن» قامت باغتيال والده عند خروجه من أحد المساجد بعد أداء صلاة الجمعة، وأن «مشاري» قد احتل القلعة وأجبر الأهالي في العاصمة على الاعتراف به حاكماً عليهم.

وقعت تلك الكارثة قبل بضعة أيام من تاريخ العاشر من آيار عام ١٨٣٤، واحتفظ «فيصل» بتلك الأخبار لنفسه وفك الحصار عن «سيهات» وأخذ معه «عبد الله بن غانم» إلى الهفوف، وهناك جمع قادة قواته بما فيهم حاكم الأحساء «عمر بن عفيصان» وأمير حائل «عبد الله بن علي بن رشيد» الذي كان قد أنشأ معه صداقة حميمة منذ اللحظة التي قدم فيها إلى الرياض لمبايعة الأمير ستركي». ومن بين الشخصيات الأخرى التي كان يعتمد عليها بشكل مطلق كان حاكم بريدة «عبد العزيز بن محمد بن عبدالله بن حسن»، و «حمد بن غيهب» من «شقراء»، و «تركي الهزاني» من «الحريق». وبعد أن أطلعهم على الأخبار التي تلقاها تشاور معهم في الأمر ووافقوا بالإجماع على ضرورة القيام بعمل فوري لاستعادة الرياض ومعاقبة ذلك الدجال الأفّاك، وأقسموا جميعاً يمين الولاء للأمير «فيصل» على أن يكون حاكمهم وإمامهم المؤمن، ووضع «ابن عفيصان» كل الأموال والمستودعات بكل محتوياتها تحت تصرف الأمير «فيصل».

أعدت الترتيبات للقيام بهجوم مبكر، وفي العاشر من شهر حزيران من عام ١٨٣٤ وصلت قوات الأمير «فيصل» إلى جوار الرياض، وعلى ما يبدو

لم يكن لدى «مشاري» معلومات عن ذلك التحرك، لكن رجاله كانوا يحرسون كل الأسوار والأبراج حول الرياض. أرسل «فيصل» مجموعات لتفتح فجوة تدخل منها قواته إلى المدينة وتحتل المباني حول القلعة. سهلت المجموعات التي كانت تحرس الأسوار دخول هذه القوة، وعلى الفور بدأت قوات «فيصل» في قصف القلعة التي كانت مزودة بالمؤن والسلاح لمواجهة أي حصار، إلا أن فرار مجموعة تقدر بـ ١٤٠ رجلاً من رجال قبيلة «سبيع» أضعف الحامية. وبعد أن أحكم فيصل ورجاله الحصار تمكن فريق من مقاتلي الأمير فيصل من التسلق، ووصلوا إلى أسطحة القلعة وانتشروا يبحثون عن «مشاري» وأعوانه، وأخيراً وجدوهم وأخرجوهم من مخابئهم وذبحوهم جميعاً. تدفق أهالي الرياض ليبايعوا «فيصل» حاكماً جديداً عليهم. وحدث ذلك في الثامن عشر من شهر حزيران عام ١٨٣٤، أي بعد حوالي أربعين يوماً من اغتيال الأمير «تركي» الذي امتد عهد حكمه لإحدى عشر عاماً بالضبط وذلك بدءاً من تاريخ وصوله إلى «عرقة».